

التفسير المطول - سورة البقرة ٠٠٢ - الدرس (٩٥-٥٢): تفسير الآيات ١٥٨-١٦٢ ، الأتصال بالله

أساس الأمن والسعادة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٨-١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

مكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالمين القديم والجديد معاً :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ
تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْمٌ)

أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مُبَارَكًا وَهَذِي لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٦]

قال علماء الجغرافيا: مكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالم القديم والجديد معاً، العالم القديم ؛ آسيا، إفريقيا، أوقیانوسيا، وأوروبا، أطراف العالم القديم، أي طرف من هذه الأطراف يبعد عن مكة ثمانية آلاف كيلو متر، إذا أضفنا العالم الجديد، وهو أمريكا الشمالية والجنوبية، أي طرف من أطراف العالم الجديد يبعد عن مكة المكرمة ثلاثة عشر ألف كيلو متر، فمكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالمين القديم والجديد معاً.

هي أول بيتٍ وضع للناس، لأن الله عزَّ وجلَ خلق الإنسان بطبيعةٍ مادية، فالإنسان إذا أراد أن يتقرَّب إلى الله يذهب إلى بيت الله، صار هناك هدف، الله عزَّ وجلَ قدَّس هذا المكان، المكان ليس مقدساً بذاته إلا أن يقدسه الله عزَّ وجلَ. فأمرنا أن نقبل الحجر الأسود، وأمرنا أن نضرب رمز الشيطان بالحجر، فرمز الشيطان محترق نرجمه، والحجر الأسود مقدسٌ قبله، لا لعنة فيه بل لأن الله أمرنا أن نفعل ذلك.

ربنا عزّ وجل اخذ هذا البيت الحرام ليكون وسيلة لإقبال العباد على الله عزّ وجل :

إذا الله عزّ وجل اخذ هذا البيت بيته له وقال: تعالوا إلي، أقبلوا علي، تقول أنت: لبيك اللهم لبيك، هذا الشيء يقودنا إلى الحج، الإنسان يصلى في بلده، وزوجته أمامه وأولاده، وعمله قريب من بيته، أما حينما يحج بيته الحرام لا بد من ترك بيته، وترك زوجته، وترك أولاده، وترك منصبه، وترك مكانته، وترك عمله، وأن يتوجه إلى بيته الحرام متفرغاً لله عزّ وجل، فإذا فراغ نفسه لله عزّ وجل، فإن الله جل جلاله يفرغه مما سواه مكافأة له على هذا التفرغ، فسأل أي حاج ذهب إلى بيته الله مخلصاً، أي مشكلة يعاني منها، أي هم في بلده يمحوه الله عنه ما دام في الحج.

إذا الله عزّ وجل من أجل أن تدفع ثمن لقائه اخذ بيته، وقال: تعال إلي، من أجل أن تدفع ثمن لقائه. مثل بسيط: لو أن طالباً والده أستاذ رياضيات متفوق، والأب أعطى ابنه درساً طبعاً بلا ثمن، لأن الدرس مجاني، قد ينتبه وقد لا ينتبه، قد يستفيد وربما لا يستفيد، أما حينما يدفع الطالب مما قد جمعه في صيفٍ بكماله ثمن دروس أستاذ رياضيات، كله آذانٌ صاغية، لأنه دفع ثمن هذا الدرس من ماله الشخصي.

الإنسان حينما يترك بيته، ويترك أهله، وأولاده، وعمله و يؤثر تلبية دعوة الله على كل حظوظه من الدنيا، دفع ثمن هذا اللقاء، لذلك الله اخذ بيته وقال: تعالوا إلي، أي تعال يا عبدي لأريحك من هموم كالجبال، تعال يا عبدي لتنوّق طعم القرب مني، تقول له: لبيك اللهم لبيك، فربنا عزّ وجل اخذ هذا البيت الحرام ليكون وسيلة لإقبال العباد على الله عزّ وجل.

ابراهيم عليه السلام له موقفان انفرد وتتفوق بهما :

طبعاً هذه مقدمة، أما الذي أريد أن أقوله لكم: سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، وقد قال الله عزّ وجل: **(وَأَنْجُوا مِنْ مَقْامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى)**

[سورة البقرة الآية: ١٢٥]

أي اخذوا من أعمال إبراهيم طريقاً إلى الله، اخذوا من الأعمال الجليلة التي قام بها إبراهيم طريقاً إلى الله عزّ وجل، ماذا فعل إبراهيم؟ إبراهيم عليه السلام له موقفان انفرد بهما، أو تفوق بهما.

١- التوكل المطلق على الله :

الموقف الأول: التوكل المطلق على الله. طبعاً نحن نتوكل على الله، ولكن نأخذ بكل الأسباب، أنت حينما تسافر يكون البيت ممتلئاً بالطعام والشراب، وكل الأشخاص يلبون طباتك في غيبتك، ووضعت عندهم المال الكافي، وهناك هاتف، وكل شيء ميسّر، وصيت أناساً كثيرين لتلبية طلبات عائلتك في غيبتك، أما أن يأتي هذا النبي الكريم بزوجته هاجر وابنه، ويضعهما في وادٍ غير ذي

زرع ويدهب، تقول: " الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا الله عز وجل".
 هناك ثقة بالله ليس لها حدود، أنت حينما تثق بالله لا بد من أن يكون الله معك، هذه المرأة والأم،
 تعرفون من الأم، آية أم، إذا أم زوجة النبي كريم ليس هناك شراب تشربه، ماء لا يوجد، الله أمرك
 بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لن يضيعنا الله أبداً. وضعها بين الصفا والمروءة، هما مكانان مرتفعان في
 موقع مكة، في أول بيته وضع للناس، فمن شدة حرصها على ابنها، وعلى سلامته، أين الماء؟
 راحت تسعى بين الصفا والمروءة بحثاً عن الماء، ولكن مسعاه لم يجد شيئاً، طفلها الصغير ضرب
 بقدمه الأرض - أحياناً تحفر خمسة متر لا تجد ماء - فانفجر من تحت قدمه نبع زمزم.
 ربنا عز وجل علمنا بهذا الدرس أنك إذا توكلت على الله حق التوكل كان الله معك، ولن يضيعك،
 طبعاً هذا توكل مطلق، لكن بالطبع نحن لسنا أنبياء، نحن مأمورون أن نأخذ بكل الأسباب وأن
 نتوكل على الله رحمة بنا، أما إنسان يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع، حيث لا ماء،
 والإنسان بلا ماء يموت في أيام معدودة، أعتقد في ثلاثة أيام ينتهي، وبلا هواء أربع دقائق، أو
 ثلاث دقائق، فلذلك علمنا الله عز وجل من هذا الدرس أنك إذا وثقت به عز وجل كان معك.
 لكن عندنا حكم شرعي، وعندنا موقف شخصي، فالذي فعله هذا النبي الكريم موقف شخصي،
 ولكن علمنا مطلقاً التوكل، لأن الله عز وجل خلق الكون على نظام السبيبة، فلما أراد أن يكون
 البحر طريقاً ييسراً لم يجعله طريقاً ييسراً إلا بسبب:

(أنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ)

[سورة الشعرا الآية: ٦٣]

ضرب البحر بالعصا فصار طريقاً ييسراً، فوجد الطود، فربنا عز وجل حينما يريد أن نصنع شيئاً
 بفعله مباشره يجعله بسبب أرضي، فنظام السبيبة نظام أساسى، إنك تؤمن بالله عن طريق نظام
 السبيبة، كل شيء له سبب، من هو المسبب الأول؟ إنه الله، حتى هذا النبع الذي هو الآن نبع ماء
 زمزم، كان بسبب أن هذا الطفل الصغير من شدة عطشه، ضرب برجله الأرض فانجس هذا النبع
 العظيم، وهذا النبع يحيّر العقول، فمجموع الأمطار التي تهطل في مكة وما حولها لا تكفي لهذا
 النبع، وكلم يعلم كيف أن هذا النبع يلبي أربعة ملايين حاج، وينتقل هذا الماء إلى المدينة المنوره -
 شيء عجيب - أرض قاحلة، أرض جافة، لا نبات فيها ولا ماء، هذا النبع مستمر، وهو آية من آيات
 الله الدالة على عظمته.

٢- العبودية الكاملة لله عز وجل :

الدرس الثاني هو أن هذا النبي علمنا العبودية الكاملة لله عز وجل؛ حينما أمره أن يذبح ابنه، إنه
 شيء ليس في طاقة البشر، أن يؤمر إنسان بذبح ابنه الذي بلغ معه السعي، الطفل الصغير حينما

يصبح فَتَىً، وَعَلْمَهُ، وَرَبَّاهُ، وَهَدَبَهُ، وَصَارَ يُسَاعِدُهُ، الآن اذبحه، أيضاً هذا درس في الانقياد لله عزَّ وجَلَ ليس له حدود، الله عزَّ وجَلَ قال:

(وَأَنْجَدُوا مِنْ مَقْامِ إِبْرَاهِيمَ مُصْلَى)

[سورة البقرة الآية: ١٢٥]

أي إن أردت أن تصل إلى الله فبادر إلى طاعته، وأعلن عبوديتك له، ثم توكل عليه:
(فَوَكِّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل الآية: ٧٩]

قضية التوكيل غائبة عن الناس، تجد كل إنسان عنده هموم تسحقه، فأين الله؟ كل شيء بيد الله عزَّ وجَلَ، توكل على الله، كن معه وتوكل عليه، أطعه وتوكل عليه، بادر إلى العبودية له وتوكل عليه.

قدسية الصفا والمروة :

أيها الأخوة... فهذه المرأة الكريمة - زوجة سيدنا إبراهيم - التي سعت بين الصفا والمروة، وكان من سعيها أن تفجر نبع زمزم، هذا درس علمنا ربنا إياه من خلال هذه القصة، وعلمنا أيضاً كيف أن الله سبحانه وتعالى حينما امتحن إبراهيم عليه السلام بأن أمره بذبح ابنه، كيف أن هذا النبي العظيم بادر إلى هذا الأمر دون تردد:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعُلْ مَا تُؤْمِنُ سَجَدَنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنِ الصَّابِرِينَ)

[سورة الصافات الآية: ١٠٢]

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ الذي حدث أن العرب في الجاهلية جعلوا على الصفا صنماً، وعلى المروة صنماً، وصاروا يسعون بين الصفا والمروة تعظيمًا لهذين الصنمين، فحينما جاء الإسلام عزف المسلمين عن السعي بين الصفا والمروة لأنه سعيٌ بين وثنين، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعيد لهذا المكان قدسيته فقال:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

ما معنى (من شعائر الله)؟ الشعائر جمع، مفرد شعيرة، هي مكان ولكن هذا المكان له خصوصية، في هذا المكان ينبغي أن تتنبك مشاعر خاصة، فإن أتيت بيت الله الحرام صادقاً، منيباً، مخلصاً، أنت في هذا المكان بين الصفا والمروة لا بد من أن تشعر بشيء، بحال من القرب، بل إن الإنسان حينما يحج بيت الله الحرام يبدأ بالطواف، كطواب المحب حول محبوبه، ويسعى بين الصفا والمروة كسعي المستاق إلى حبيبه، حالات نفسية، هذا معنى الشعائر، أي أنت يجب أن تشعر بشعور مقدس وأنت فيها، وكل إنسان حجَّ بيت الله الحرام وما شعر بشيء؛ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما روي عنه أنه من وقف في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حجَّ له.

أهمية التوكل :

الذي يعجب أن الإنسان يذهب إلى الحج، ويعود، ويحدثك عن كل شيء إلا الحج، يحدثك عن المبيت، وعن الطرق، وعن المشاريع العمرانية، وعن تأمين الماء البارد، وعن تأمين الطعام، والمواصلات، وكيف وصل إلى الديار المقدسة، وكيف غادر هذه الديار، وأي رحلة ركب، وكم انتظر، شيء عجيب يحدثك عن كل شيء إلا الحج، لكن وأنت في الطواف ماذا شعرت؟ وأنت بين الصفا والمروة ماذا شعرت؟ وأنت على عرفات ماذا شعرت؟ أيعقل أن يقول لك الله عز وجل: تعال واترك أهلك، وبيتك، ومالك، وعملك واجلس هنا هكذا بلا شعور، بلا إحساس، بلا إقبال، بلا شيء ثمين تملكه وأنت في الحج؟

فذلك الله عز وجل أراد أن يزيل وثنية هذا المكان المقدس وقال:

(إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

دعوكم من الأصنام التي كانت في الصفا وفي المروة، وهذا المكان قدسهما الله عز وجل لأنهما يشيرا إلى التوكل الذي علمنا إياه سيدنا إبراهيم.

هل هناك إنسان الآن لا توجد عنده قائمة هموم؟ ليس من إنسان إلا وعنته قائمة من الهموم، لماذا لا تتوكل على الله؟ لماذا لا تضع هذه الهموم عند الله عز وجل؟ لماذا لا تكتفي أن تطيعه وعلى الله الباقي؟ هذا حال مريح جداً، الله عز وجل خلقنا، وبهذه كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وكل شيء يغيره، وكل شيء يبدل، فأنا علي أن أطيعه، وعلى الله الباقي، أي أنه دبر ألا تدبر، لا أقول: تتوأكل، لا، ولكن لا تجعل الهم يسحق الإنسان، فحياة الإنسان معقدة جداً، ولا سيما في هذه الأيام، الحياة صعبة، الحاجات كثيرة، المكافئات قليلة، ثمة منافسة، وخوف، وقلق، وحرمان أحياناً، وشعور بالضياع، هذا علاجه التوكل..

(إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ)

الشعور بالأمن هو أثمن شعور يسعد الإنسان :

درس التوكل علمنا إياه ربنا من خلال قصة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم..

(إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

فإله عز وجل قال:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

[سورة آل عمران الآية: ٩٧]

أي أن الله عز وجل يُلقي في قلب الحاج من الأمان ما لا يوصف، الشعور بالأمن شعور لا يقدر بثمن، بل إن الشعور بالأمن يعد أثمن شعور يسعد الإنسان، الله عز وجل قال:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِالْهُمْ)

[سورة محمد الآية: ٥]

رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

[سورة آل عمران الآية: ٩٧]

هناك آيات كثيرة جداً:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: ١٢٥]

السعادة في الحج تكون من خلال الاتصال بالله عز وجل :

فأنت حينما تحج بيت الله الحرام تتنمى أن تعود إليه كل عام، من السعادة التي ألقاها الله في قلبك، الحقيقة في نقطة دقيقة جداً هي: إن اللذة المادية لها شرائط، والسعادة الروحية لها شرائط، الله عز وجل جمد كل أسباب اللذة الجسمية، فهي بلاد حارة، جعل الحج في وقت محدد، إذا كل هؤلاء الناس سيأتون إلى هذا المكان في وقت واحد، أربعة ملايين إنسان لا بد من أن ينتقلوا من عرفات إلى منى في وقت واحد، أصعب عقدة في الحج النفرة، أربعة ملايين لا بد من أن يطوفوا حول الكعبة.

جاء وفد لتنظيم الحج، فقدم تقرير مطول للقائمين على الحج هناك، فكان من بنود هذا التقرير أن يكون الحج على خمس دورات في السنة، بعيد عن جو الحج، على خمس دورات في السنة، فالله عز وجل جعل كل أسباب الراحة الجسمية معطلة في الحج، ومع هذه الأسباب المعطلة هناك سعادة تتحقق حد التصور لمن كان صادقاً في حجه، هذا الشيء دقيق.

لو أن المكان جميل، والهواء عليل، والطعام طيب، والمناظر خلابة، والحج على مدار العام، صار الحج فيه راحة، والأوراق اختلطت، يا ترى أنت كنت سعيداً بهذه المناظر، وهذا الطعام، والهواء العليل، أم بإقبالك على الله؟ أراد الله أن تكون السعادة في الحج من باب واحد إنها الاتصال بالله. فكل أسباب السعادة الأرضية معطلة، في وادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم، الحر لا يحتمل، الازدحام لا يحتمل، فالله عز وجل أراد أن تعرف أنك إذا اتصلت به وأنت في أصعب الظروف تكون أسعد الناس، وحينما تقطع عنه وأنت في أجمل الظروف تكون أشقي الناس، هذه السكينة التي يلقيها الله في قلب المؤمن يسعد بها ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء، فكأن الحج وسيلة فعالة من أجل أن تتصل بالله عز وجل، فرَّغك، قال: تعال إلى، دع بيتك، دع مكانك المريح، لك غرفة خاصة، لك مقعد وثير بين زوجة وأولاد وبنات وأصحاب، بعملك ومكتبك، دعك من الدنيا وتعال إلى، تعال وارتدي هذين الثوبين الخشنين، عاري الرأس، حافي القدمين، أو شبه

حافي القدمين، تعلَّم طُف حول الكعبة، اسْعَ بين الصفا والمروءة، انقل إلى عرفات، ابتهل، ادعُني،
توجَّه إليَّ، هذه السعادة.

السعادة التي يمتلكها الحاج في اتصاله بالله هي دليل أن الإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله :

لذلك إذا جلست مع حاج حجَّ مبروراً، وقبل الله حجَّه، تشعر أنك في جنة، فما هذه الجنة؟
السفر صعب، ترك الأهل أصعب، والإنفاق شديد، والحر شديد، لكن السعادة التي يمتلكها الحاج في
اتصاله بالله، مع كل الظروف الصعبة التي تحيط به، هي دليل أن الإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ)

حجَّ البيت أي قصد البيت، اعتمر زار:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩٦]

هذا الموضوع لا بد من أن يقودنا إلى الحج، الحقيقة الصلاة شحنة تعينك على أن تصل إلى
الصلاه الثانية، شحنة قصيرة ؛ الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العشاء، خمس أوقات، كل وقت
يضمن لك السلامة والسعادة إلى وقت آخر، ولكن شحنة يوم الجمعة هذه شحنة أطول تكفيك أسبوعاً
بأكمله، لكن شحنة الصيام هذه تكفيك مدى العام، أما شحنة الحج هذه مدى العمر، فالحاج إذا ذهب
إلى بيت الله الحرام، وعاد منه، فيجب أن يعود إنساناً آخر، يجب أن يعود متقد الفؤاد، لأن صار له
هذا القرب من الله عزَّ وجلَّ، إلا أن الناس حينما يتأخرون في دينهم، يحجون رياءً وسمعةً أو
للتجارة، أما الذي يحج بيت الله الحرام مخلصاً فيرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر.

الله اتخذ هذا البيت - للذي بيته - بيتاً له، أمر عباده المؤمنين أن يأتوه زائرين وحجاجين، والله يتولى
بذاته مكافأتهم وإكرامهم، قد يقول الحاج: ماذا حصل لي؟ أنت حينما حججت بيت الله الحرام حصل
لك الفُرُب، ومع القرب الأمن، ومع السلامة السعادة، أنت حينما زرت بيت الله
الحرام ذقت طعم القرب من الله، عندئذٍ تزهد في الدنيا كلها.

أراد الله أن يجعل الصفا والمروءة مكаниن لعبادته وطاعته وشعيتين من شعائر المسلمين:

قال تعالى :

(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا)

لأن المسلمين في أول عهدهم كانوا يتحرّجون أن يطّوّفوا بين الصفا والمروءة، لأنّه كان على الصفا
صنم، وعلى المروءة صنم، فربنا عزَّ وجلَّ أراد أن يجعل من هذين المكانيين اللذين دُسساً بالصنمين،
أن يجعلهما مكانين لعبادته وطاعته، وشعريتين من شعائر المسلمين..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فُلَانًا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ
تَطَوَّعَ خَيْرًا)

يطوّف: أي سبعة أشواط، لأن هناك فرق بين كسر وكسّر، كسر القطعة إلى قطعتين، أما كسرها إلى قطع كثيرة، فإن يطوّف أي أن يكون طوافه كثيراً، والنبي اختار سبعة أشواط تجسيداً لكلمة يطوّف بهما..

(وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْمٌ)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَبُهُمُ
اللَّهُ وَيَلْعَبُهُمُ الظَّالِمُونَ)

الكبائر وأنواعها :

ذكرت قبل أسبوعين أن هناك كبائر، والكبائر مهلكة، وكلكم يعلم أن الكبائر هي التي توعد الله على مرتكبها بعيداً مخيفاً، أو لعنه، أو هي الأعمال التي توجب إقامة الحد، على كل هناك خلاف بين العلماء في تعريف الكبيرة، لكن من أدق أنواع التعاريف للكبيرة: أنه العمل الذي يستحق فاعله ويعيداً من الله عزّ وجل، أو لعنا، أو غضباً، أو توجب حدأ.

فهناك كبائر ظاهرة وهناك كبائر باطنة، الظاهرة كشرب الخمر، وتعلم السحر مثلاً، والعلماء عدّوها إلى سبعين كبيرة، ولكن الكبائر الباطنة أخطر من الظاهرة بكثير، من هذه الكبائر الباطنة ذكرتها قبل أسبوعين، وهي الأمان من مكر الله، هذه كبيرة، إذا كان الإنسان مقيناً على معصية، ولا يبالي بها، والله يمدّه بالمال والقوة، فإذا كنت على معصية، وكان ثمة عطاء من الله لك، ولم تخـفـ، فأنت قد أمنت من مكر الله، الله عزّ وجل لا يجعل من هذه النعمة نعمة إنما هي نعمة، إنما هي استدراج، فهذه كبيرة من الكبائر الباطنة، الأمان من مكر الله، هناك كبيرة أخرى من هذه الكبائر الباطنة هي اليأس من روح الله، وثمة كبيرة ثلاثة هي سوء الظن بالله، وتحدثت عن هذا في الدرس الماضي.

والليوم تحدثت عن كبائر أربعة أو خمسة، من هذه الكبائر كتمان العلم، أي أنت معك معلومات حقيقة، صحيحة من الكتاب والسنة، كنت في موقف، الحاضرون في أمس الحاجة لهذه المعلومات، ولكنك إن أقيتها ضعفت مركزك، فكتمنتها، فكتمان العلم كبيرة من الكبائر التي توجب لعنة الله والناس والملائكة أجمعين..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

بعضهم قال: هم اليهود الذين كتموا صفة النبي في التوراة الله عزّ وجل وصف رسول الله في التوراة وصفاً دقيقاً، لدرجة أن اليهود يعرفون أبناءهم، ومع ذلك كتموا هذه الأوصاف

من أجل عداوة، أو حسد، أو بغضه مع المسلمين، فكتمان العلم من أكبر الكبائر، فالله عز وجل توعّد هؤلاء الذين يكتمون..

(إنَّ الَّذِينَ يَكُثُّرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَبُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَبُهُمُ الظَّالِمُونَ)

لا سبييل إلى الشعور بالأمن إلا بطاعة الله عز وجل :

مرة حضرت مؤتمراً عن الأسرة مدة يومين - أول يوم فيه خمس جلسات، وثاني يوم فيه خمس جلسات - وقد تمنيت على المحاضرين أن يتکلموا كلمة عن الدين، وعن الإسلام، أو عن الله عز وجل، وهذا موضوع خطير متعلق بالدين، وبمنهجنا الاجتماعي، فهناك الآن رغبة بعزل الدين عن الحياة، حقائق الدين مشرقة، حقائق الدين صارخة، حقائق الدين مُساعدة، حقائق الدين غذاء لنا، ومع ذلك الآن تطرح أي موضوع بمعزل عن الدين، ولا كلمة، الكلام كله مادي، كله بعيد عن هذا الدين القويم، يقول لك: قيم روحية، الحس الأخلاقي. أي حس أخلاقي هذا؟

الشيء الحقيقي أن تؤمن بالله أن الله سيحاسب، وتؤمن وباليوم الآخر وتنضبط، أما بحس أخلاقي، يقول لك: قيم روحية - شيء جميل! - ومشروبات روحية، مثل بعضها، في عزل للدين، حتى المثقف ثقافة عالية حر التفكير، علماني يعتم على الدين تعنيماً كاملاً، مع أنه بفطرته يعلم أنه لا سبييل إلى سعادة الإنسان إلا بالدين، ولا سبييل إلى الشعور بالأمن إلا بطاعة الله عز وجل، فتجد موضوعات إنسانية، موضوعات فلسفية، موضوعات اجتماعية، موضوعات اقتصادية تعالج بطريقهٍ أو بأخرى بعيداً عن الدين، فهذا ينطبق على هؤلاء، هذه الآية:

(إنَّ الَّذِينَ يَكُثُّرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَبُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَبُهُمُ الظَّالِمُونَ)

فهذه الآية في هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البيانات، أي يعرف الحق لكن المناسب أن يكتمه، فكتمه، ما الذي يحصل؟ طريق السعادة الوحيد هو الله، فإذا أنت قطعت الطريق إلى الله منعت الناس من السعادة والسلامة.

طريق السلامة أن تطيع الله وأن تعرفه :

الناس رجال مقرب ومبعُد، محبب ومنفِّع، موصل وقطاع، ليس ثمة ثالث، إما أن توصل الناس بالله، وإما أن تقطعهم عنه، إما أن تحببهم به، وإما أن تنفرهم منه، إما أن تقنعهم بأحقية الدين، أو أن تقنعهم بأحقية الحياة الماديه، فالذي يكتم علماً مقدساً يعرّفه ويكتمه حفاظاً على مكانته، أو طلبًا لسلامته، ماذا فعل؟ قطع الناس عن الله عز وجل.

((يا رب ، أَيْ عَبَدْكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ حَتَّى أَحَبَّهُ بِحُبِّكَ ؟ قَالَ : أَحَبُّ عَبْدِي إِلَيَّ تَقْيَةُ الْقَلْبِ ، نَقْيُ الْبَدِينِ
، لَا يَمْشِي إِلَى أَحَدٍ بِسَوْءَ ، أَحَبِنِي ، وَأَحَبُّ مِنْ أَحَبِنِي ، وَحِبْبِنِي إِلَى خَلْقِي))

[ورد في الأثر]

فإذا كان طريق السلامة هو أن تعرف الله، طريق السلامة أن تطبع الله، توجد نقطة بالحياة؛ في عندما مشكلات كثيرة، كل مشكلة تعد عن الجهلة بحد نفسها مشكلة، أما الحقيقة فكل هذه المشكلات أعراض لمشكلة واحدة هي الإعراض عن الله، هذه اسمها أعراض الإعراض؛ ما يعني الناس من ضيق، من خوف، من قلق، من جفاف، من كسد، هذه كلها تأديبات من الله، فأهل الدنيا يبعدون الدين عن حل هذه المشكلات، يريدون أن يحلوها بطريق مادية، والطريق هذا قد يكون مسدوداً، أما حينما تقول للناس:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَاهُمْ مَاءً عَذَّاباً)

[سورة الجن الآية: ١٦]

حينما تربط الناس بالله عز وجل، حينما تطمئنهم أن الأمر بيد الله، لا بيد زيد ولا عبد، الشرك يقطع الناس عن الله:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ)

[سورة النساء الآية: ١١٦]

أكبر عقاب يعاقب الله به أعداءه أن يحجبهم عنه:

أنت عندما تبيّن أن الأمر بيد الله عز وجل، ولا توجد أي جهة أرضية بيتها الأمر:
(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ)

[سورة الزمر الآية: ٦٢]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف الآية: ٥٤]

الأمر له، فهذا كلام مريح للنفس، هذا كلام مطمئن، فأنت حينما تعم على حقائق الدين، تعتم على التوحيد، تعتم على أن الدين هو ملاذ الإنسان بالله، حينما تعتم على أن الدين هو المُسعد الحقيقي، حينما تعتم عن أن منهج الله هو المنهج الوحيد الموصى إلى السعادة، أنت حينما تعتم على هذه الحقائق تقطع الناس عن الله، توقعهم في الشقاء الدنيوي والأخروي، لذلك هؤلاء المعتمون يلعنهم الله، أي يبعدهم عنه، وأكبر عقاب يعاقب الله به أعداءه أن يحجبهم عنه..

(كَلَّا إِلَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَنِ لِمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين الآية: ١٥]

(وَيَأْعَذُهُمُ الظَّاعِنُونَ)

اللاعنون هم الخلق كافة، حتى البهائم، فالإنسان حينما يبتعد عن الله يقوس قلبه، فإذا عالج بهيمة قساً عليها، النبي عليه الصلاة والسلام رأى بعض أصحابه يذبح شاةً أمام أختها فوبخه وقال: هلا حجبتها عن أختها :

((أو تريد أن تميتها مرتين.))

[الطبراني عن عبد الله بن عباس]

الناس رجال :

المؤمن في قلبه رحمة، وكل من في الأرض وكل ما في الأرض يلعن الذي يبعد الناس عن الله عزّ وجلّ، ليس هناك شخص ثالث، مقرّب ومبعّد، محظوظ ومنفّع، واصل وقاطع، الناس رجال؛ رجل يدعو إلى الله، ورجل يبعد الناس عن الله، الأول يدعوه إلى طاعته، يدعوه إلى معرفته، يدعوه إلى اتباع سُنّة نبيه، يقدم لهم نموذجاً حياً صادقاً مخلصاً؛ والثاني يحبهم في الدنيا، يرغبهم في متعها، وفي مالها، يبعد عنهم شبح الآخرة، فإذاً لماذا هؤلاء:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَبُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَبُهُمُ الْلَاعنُونَ)

يلعنهم الخلق كافة، حتى غير الإنسان، فمرة وجدت إنساناً يبيع السمك الطازج، يصطاد السمك، والسمك يتحرّك حركة عشوائية، يذبحه ويخرج أحشاءه، قبل أن يسكن، والله يقول:

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)

[سورة الحج الآية: ٣٦]

أي سكتْ، رأيت إنساناً يأخذ دجاجة، يذبحها ويضعها في ماءٍ يغلي فوراً، حتى يسهل عليه نتف ريشها، هذا وحش، فهي مخلوق له روح، ذبحتها، إنّظر حتى تهدأ، ثم ضعها في ماءٍ ساخن، وهي لا تزال تشعر وتحس فهذا في قلبه قسوة.

الذي يكتم ما أنزل الله يبعد الناس عن الله :

اللاعنون الخلق كافة، فالبعيد عن الله كيما تحرّك يؤذى، لذلك المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، أمّا الكافر:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

[سورة الدخان الآية: ٢٩]

لأنه مؤذٍ، فالذي يكتم ما أنزل الله يبعد الناس عن الله، عن طريق السعادة قطعهم عنه، عن طريق الأمان قطعهم عنه، عن طريق التوفيق قطعهم عن الله، عن طريق الطمأنينة قطعهم عنه، عيّشهم بالدنيا، وبهموم الدنيا، قال: هؤلاء..

(يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ)

يبعدهم الله عن رحمته، ويلعنهم الخلق كافة..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا)

هذه رحمة الله، دائمًا في استثناء..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

إذا كان ثمة كتمان وجب أن يكون عند التوبة تبيين، تابوا عن كتمان العلم، وأصلحوا ما أفسدوا سابقًا، وبينوا..

(فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الدين أساس الأمن و الطمأنينة عند الإنسان :

أحد أخواننا له صديق يعاني من أزمة نفسية، فأخذه إلى طبيب نفسي، فالطبيب سأله عن أحواله، قال له: هل له درس علم؟ فقيل له: نعم، قال له: هذا السبب - هو درس بأوروبا، وتعلم أن الدين يخدر الإنسان، ويغده، فبحسب دراسته يجب أن يكون لهذا الشاب صديقة لكي يكون سوية، ويجب أن يكون منفتحاً على الحياة، ويفعل كل شيء بلا قيد ليؤكد شخصيته - فهذا الأخ فهيم، قدّم لهذا الطبيب عشرة أشرطة وكتاباً، هذا الطبيب يبدو أنه صادق، ولكن غابت عنه الحقائق، عكف على قراءة الكتاب، وسماع هذه الأشرطة، وبذل كلامه مئة وثمانين درجة، صار يقول: الدين يخلق صحة نفسية عند الإنسان، الدين أساس الأمن عند الإنسان، أساس الطمأنينة، أساس التألق، وهذه الحقائق غابت عنه، فلما عرف الحقيقة بين عكسها، هذا وأمثاله يكرمهم الله عز وجل..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا)

الطبيب النفسي يعد السلوك المنحرف هو السوي، والسلوك المنحرف والتفلت من منهج الله هو الصحة النفسية، أما الانضباط يعود عدّة عقدة، هكذا الأمر في الأطباء الذين درسوا علم نفس في جامعات أوروبا، والجامعات الغربية أساسها الشخص الغربي، ليس له منهج يسير عليه إطلاقاً..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الدين سبب الصحة النفسية للإنسان :

لفت نظري هذا الطبيب أنه خالل تهمه لحقائق الدين - وإن كانت سريعة - صار يتكلّم كلاماً عكس الكلام الأول ؛ إن الدين سبب الصحة النفسية للإنسان، الدين يحدث توازناً، يحدث طمأنينة، يحدث شعوراً بالأمن..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ)

طبعاً إذا مات الإنسان المؤمن فليس له أية مشكلة، أما إذا مات الكافر فله جهنم خالداً مخدداً فيها..
*) عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ حَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُظْرَوُنَ *
وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

وهذا إن شاء الله نبيئه في الدرس القادم نبدأ به.

والحمد لله رب العالمين